مُخْتَصَرُ

قَوَاعِدِ التَّوحِيْدِ

اختصار

أبي عبد الله المصنعي

وفقه الله تعالى وسدده

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله العزيز الرحيم، الغني الكريم، الحي القيوم، الرب العظيم، المتفرد بكل كمال وجلال، المعبود بالحق في كل زمان ومكان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصحبه وسلم ومن تبعهم بإحسان، أما بعد:

فكنت كتبت كتاباً في أهم قواعد التوحيد «توحيد الألوهية» استخلصتها من كتب شيخ الإسلام وابن القيم وغيرهما من أئمة الإسلام مع نقولات مطولة، ثم لخصت تلك القواعد في هذه الورقات رجاءَ أن يُنتفع بها لقرب تناولها وسهولة عباراتها، ورغبة في تدريسها وترجمتها لمن وفقه الله تعالىٰ لذلك، فالناس غالبًا يملُّون الطول إلا قليلاً منهم.

والله أسأل التوفيق والسداد، وحسن الختام، والفوز والرشاد، وأن يعز التوحيد وأهله، ويذل الشرك والمتنجسين به.

وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

كتبه/ أبو عبد الله المصنعي غفر الله له ولوالديه ومشايخه وسائر المسلمين
دار الحديث معبر - ١٤٣٤هـ / ت/ ٧٧٧٨٢٤٦٤٣

القاعدة الأولى

دين الإسلام مبني على أصلين: التوحيد والاتباع[(١)]

والتوحيد هو: إفراد الله تعالىٰ بالألوهية والربوبية والأسماء والصفات.

والاتباع هو: إفراد الرسول ﷺ بالاتباع، فلا نعبد الله تعالىٰ إلا بما شرع.

وهذان الأصلان هما جماع الدين وأساسه ورأسه وعموده: أن لا نعبد إلا الله تعالىٰ لا نشرك به شيئًا، وأن نعبده بما شرع لا نعبده بالبدع، وهذا هو العمل الصالح الحسن، ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الكهف:١١٠]، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [سورة الملك:٢]، والعمل الصالح الحسن هو أخلصه لله تعالىٰ وأصوبه للسنة، وبهذا يكون الدين كله لله تعالىٰ.

وهذان الأصلان هما تحقيق الشهادتين اللتين هما رأس الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله. فإن الشهادة لله بأنه لا إله إلا هو تتضمن إخلاص الإلهية له سبحانه، فلا يجوز أن يتأله القلبُ لغيره لا بحب ولا

---

(١) «الاقتضاء» (٢/ ٣٧٣-٣٧٧)، «المدارج» (١/ ٨٣-٨٥).

خوف، ولا دعاء، ولا ذبح.. بل لابد أن يكون الدين كله لله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة:١٩٣]، فإن كان بعضه لله وبعضه لغيره كان فيه من الشرك بحسبه.

والشهادة بأن محمداً رسول الله ﷺ تتضمن اتباعه وتصديقه وطاعته، فلا دين إلا ما شرعه الله تعالىٰ ورسوله، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [سورة الحشر:٧]، «**إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ**»، «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ**»، متفق عليه عن عائشة رضي الله عنها.

فمن أشرك أو ابتدع فقد جاء بعمل مخالفٍ للدين، ولم يأت بما أُمر به، فعمله لا يصح ولا يقبل منه، وعلىٰ هذا اتفق جميع الرسل، كما سيأتي.

والناس في هذين الأصلين منقسمون إلىٰ أربعة أقسام:

١- مخلص متبع.

٢- مخلص مبتدع.

٣- متبع غير مخلص.

٤- مشرك مبتدع...

وكلهم هلكىٰ إلا الأول، عافانا الله تعالىٰ من الشرك والبدع!

القاعدة الثانية

التوحيدُ هو أولُ دعوةِ الرسلِ وأتباعهم(١)

جميع الرسل والأنبياء افتتحوا دعوتهم بالأمر بتوحيد الله تعالىٰ في العبادة وترك عبادة ما سواه، كما شملت دعوتهم سائر أنواع التوحيد والشرائع، قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [سورة الأنبياء:٢٥].

وكما أخبر الله تعالىٰ عن نوح وهود وصالح وشعيب وموسىٰ وعيسىٰ وغيرهم أنهم قالوا لأقوامهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾.

ونبينا محمد ﷺ افتتح دعوته بذلك، وبعث الدعاة كذلك، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما في بعث معاذ إلىٰ اليمن: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَىٰ**»، رواه البخاري.

(١) «الفتاوىٰ» (١٦/ ٣٣١).

وقد أجمع السلف علىٰ أن أول ما يؤمر به العبد هو الشهادتان، لما في الصحيحين من حديث ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّىٰ يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ**».

القاعدة الثالثة

دعوةُ الرسلِ واحدةٌ وهي الإسلام العام (١)

الإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والسنة والطاعة، والبراءة من الشرك والبدعة والمعصية.

وبهذا بُعِث جميع الرسل، وأُنزلت جميع الكتب بالدعوة إلىٰ التوحيد ونبذ الشرك، وبالدعوة إلىٰ طاعة الله تعالىٰ ومجانبة معصيته، وبالدعوة إلىٰ اتباع شرع الله تعالىٰ، والحذر من البدع والابتداع.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران:١٩]، ﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾ [سورة البقرة:١٦٣]، وعلىٰ هذا اتفق المسلمون من كل ملة.

ولفظ (**الإسلام**) يتضمن الاستسلام والسلامة التي هي الإخلاص، وقد عُلِم أن الرسل جميعهم بُعِثوا بالإسلام العام المتضمن لذلك، كما قال تعالىٰ: ﴿يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ﴾ [سورة المائدة:٤٤]، وقال موسىٰ: ﴿فَعَلَيۡهِ

(١) «الفتاوىٰ» (٧/ ٦٢٣-٦٢٤).

تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسۡلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [سورة يونس:٨٤]، وقال الخليل: ﴿أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [سورة البقرة:١٣١-١٣٢]، ونظائر هذا كثير.

فالرسل عليهم السلام متفقون في الدين الجامع للأصول الاعتقادية والعملية: كالإيمان بالله تعالىٰ وبرسله وباليوم الآخر، والعملية كالأعمال العامة المذكورة في الأنعام والأعراف والإسراء: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡ﴾ [سورة الأنعام:١٥١] الآيات الثلاث. وقوله تعالىٰ: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء:٢٣] إلىٰ آخر الوصايا. وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِ﴾ [سورة الأعراف:٢٩] الآيات.

فهذه الأمور وأمثالها هي من الدين الذي اتفقت عليه الرسل والشرائع ولم تُنسخ، وما أحدثه الناس من كل أمة مما يخالف هذه الأصول فهو مما لم يأت به الرسل ولا شرعه الله تعالىٰ.

ودين الإسلام نسخ جميع الشرائع، إلا أن هذه الوصايا والتوحيد مما جاء مصدقًا لها داعيًا إليها.

القاعدة الرابعة

لا يكونُ العبدُ موحداً إلا إذا جاء بجميع أقسام التوحيد كلها(١)

التوحيد لا يتجزأ، فمن أخل بقسم منه لم يُقبل منه الباقي، فقد كان أقوام من الأمم يقرون بربوبية الله تعالىٰ ويعبدون غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [سورة يوسف:١٠٦]، فسماهم مشركين وأباح دماءهم وأموالهم وأعراضهم.

فالتوحيد الصحيح هو إفراد الله تعالىٰ بجميع أنواع التوحيد، فلا رب إلا الله تعالىٰ ، ولا يُعبد بالحق إلا هو سبحانه الموصوف بالجمال والجلال وصفات الكمال، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [سورة النساء:٣٦]، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [سورة الفاتحة:٢-٥]، فجمع أنواع التوحيد كله، وسار علىٰ ذلك أهل الصراط المستقيم، وضل عنه المغضوب عليهم والضالون أهل الشرك والتمثيل والإلحاد والتعطيل.

---

(١) «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٦/ ٥٦٤)، «الإنابة» لابن بطة (ص ٦٩٣-٦٩٤) وغيرهما.

ففي توحيد الربوبية براءة من مذهب أهل التعطيل الذين عطلوا الخالق عن مخلوقاته أو بعضها.

وفي توحيد الألوهية براءة من مذهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

وفي توحيد الأسماء والصفات براءة من مذهب المعطلة الذين أنكروا صفات الباري سبحانه، وعطَّلوا كماله، والممثلة الذين مثَّلوا الخالق بالمخلوق، فتنقصوا كماله وجلاله.

ولذلك كان الإقرار بنوع من التوحيد موجبًا للإقرار بالباقي، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [سورة البقرة:٢١] الآية. فالربوبية تستلزم تجريد العبادة لله وحده، والإقرار بكماله وصفاته، والإقرار بالألوهية متضمنٌ للربوبية والأسماء والصفات ... كما أن الشرك في الربوبية مستلزمٌ للشرك في الألوهية، والشرك في الألوهية متضمنٌ للشرك في الربوبية... دل ذلك علىٰ التلازم بينها.

القاعدة الخامسة

لا يكونُ التوحيدُ صحيحاً مقبولاً إلا بالبراءةِ من الشرك[(١)]

فالتوحيد التام هو إفراد الله تعالىٰ بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات، والبراءة من الشرك في ذلك ومن أهله، كما أن التمسك بالسنة لا يتم إلا بالبراءة من البدعة، قال تعالىٰ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦]، ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦]، ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦]، والأدلة في هذا كثيرة تأمر بالتوحيد وتنهىٰ عن الشرك.

بل إن نفس الإيمان والتوحيد ينفي الشرك، فلا يجتمعان علىٰ وجه مقبول كما لا يجتمع الضدان.

ودين الإسلام مبنيٌّ علىٰ توحيد الله عز وجل، وترك عبادة ما سواه، ومن ظن أنه ناجٍ ولو لم يتبرأ من الشرك كله فقد خالف الكتاب والسنة والإجماع والعقل والفطرة، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ

---

(١) «المدارج» (٢/ ١٨٢)، «الدرر السنية» (١١/ ٥٤٥).

وَرَسُولَهُۥ﴾ [سورة المجادلة:٢٢] الآية. ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [سورة الأنعام:١٦٤]، ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [سورة الأنعام:١٤]، فلم يوحِّد الله تعالىٰ من لم يتبرأ من الشرك وأهله، ولا عرف معنىٰ (لا إله إلا الله) التي معناها: لا معبود بحقٍّ إلا الله، (لا إله) براءة من جميع ما يُعبد من دون الله تعالىٰ، (إلا الله) إثبات العبادة لله تعالىٰ وحده، فمن قالها وهو مشركٌ لم تنفعه كاليهود والنصارىٰ والمنافقين وغيرهم، ﴿إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة النساء:١٤٥].

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [سورة الأنفال:٣٩]، والفتنة: الشرك.

القاعدة السادسة

لا يجتمع التوحيدُ الصحيحُ مع الشركِ والكفر الأكبر(١)

التوحيد جماع الحسنات والعدل، كما أن الشرك جماع السيئات والظلم، فلا يجتمعان أبداً، كما لا يجتمع النقيضان، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء:١١٦]، فسيئة الشرك محبطة للأعمال مستوجبة للخلود في النار، فلا تنفع معها حسنة، ولذلك كان أعظم ما نهىٰ الله تعالىٰ عنه الشرك، كما أن التوحيد أعظم ما أمر الله تعالىٰ به، ولهذا كانت (لا إله إلا الله) أحسن الحسنات، لأنها مشتملة علىٰ التوحيد ونفي الشرك، «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ دَخَلَ الْجَنَّةَ»، رواه مسلم عن عثمان رضي الله عنه .

فإذا قام العبد بالتوحيد حق القيام فأفراد الله عز وجل بالتوحيد كله فإنه ينجو من الشرك، وإذا لم يفرد الله تعالىٰ بالتوحيد وخلطه بالشرك لم يقبل منه، بل إنه من المشركين، فمن ادعىٰ التوحيد وهو عاكفٌ علىٰ القبور، أو يدعو غير الله تعالىٰ ، أو يذبح لغيره، أو غير ذلك من الشركيات، فحقيقة هذا أنه غير موحِّد ولم يعرف التوحيد، ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر:٦٥]، كما سبق نحوه في القاعدة الخامسة والرابعة.

---

(١) «الفتاوىٰ» (١/ ٨٦) و(١/ ٥٢)، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٧-١٢٩).

القاعدة السابعة

العبادةُ حقٌّ محضٌ لله عز وجل، فما ثبت أنه عبادة فصرْفُهُ لغير الله تعالى شركٌ(١)

والعبادة هي كل ما أمر الله تعالىٰ به وأحبه.

العبادة حق الله تعالىٰ الذي لأجله خلق العباد، ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [سورة الذاريات:٥٦]، فلا يرضىٰ أن يُشرك معه نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [سورة النساء:٣٦].

وبذلك بعث جميع الرسل وأنزل الكتب، ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء:٢٣].

فالله عز وجل هو المستحق للعبادة لذاته، لأنه المألوه المعبود الذي تألهه القلوب وترغب إليه عند الشدائد... ولا يستحق أن يُعبد أحد سواه، فقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة:٥] إشارة إلىٰ اختصاصه بالعبادة... فإذا تقرر هذا فمن صرف العبادة لغيره سواء قصد الشرك أو لم يقصده فقد أشرك به ووقع فيما

---

(١) «العبودية» (ص ٦)، «شرح كتاب التوحيد: باب النذر».

حذر الله تعالىٰ منه ولو ادعىٰ ما ادعاه أسلافه، ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر:٣]، وهؤلاء هم من وصفهم الله تعالىٰ بقوله في نفس الآية بالكاذب الكفَّار.

وقد أجمع العلماء علىٰ أن من صرف شيئًا من العبادة كالدعاء والنذر والذبح وغير ذلك لغير الله تعالىٰ فهو مشركٌ حلال الدم والمال، خالد في النار.

القاعدة الثامنة

الشريعة تحمي جنابَ التوحيد وتسدُّ جميع الذرائع المفضية إلى ضعفه وحصول الشرك(١)

من أعظم مقاصد الشريعة: الحث علىٰ إخلاص الدين لله وعبادته وحده لا شريك له، وسد الذرائع المفضية إلىٰ الشرك، دقها وجلها، ومن ذلك: النهي عن الغلو، والتصوير، ورفع القبور، والتشبه بالكفار، وشد الرحال -إلىٰ غير المساجد الثلاثة- إلىٰ مسجد أو قبر، وهكذا النهي عن الصلاة وقت الغروب سداً لذريعة التشبه بعُبَّادِها، والنهي عن قول (ما شاء الله وشاء فلان) سداً لذريعة الشرك... وسدُّ الذرائع حسم لمواد وموارد الشرك، وهو من تحقيق (**لا إله إلا الله**) وصيانة التوحيد والحفاظ عليه ...

وما من أمة دخل عليها الشرك والبدع إلا بعد دخول وسائلها وذرائعها، ولذلك قال تعالىٰ: ﴿يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [سورة المائدة:٧٧]،

(١) «الاقتضاء» (٢/ ٣٨٥)، «الفتاوىٰ» (١/ ١٣٦-١٣٧) وغيرهما.

وقال ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»، رواه البخاري.

فظهر جلياً أن حماية التوحيد من ذرائع الشرك من أصول الدين المتفق عليها عند جميع المرسلين.

القاعدة التاسعة

من حقق التوحيد ولوازمه دخل الجنة[(١)]

تحقيق التوحيد يكون بالإخلاص التام لله تعالىٰ وطاعته ولزوم شرعه، وذلك معنىٰ (لا إله إلا الله، محمد رسول الله) فإنها تنفي الشرك والبدع، وتخرج من قلب العبد كل ما سوىٰ الله تعالىٰ محبة وتعظيماً وخشية وتوكلاً وتوجهاً وإنابة، فمن حقق التوحيد هذا التحقيق دخل الجنة، كما قال ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ، إِلَّا حَرَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ النَّارِ**»، متفق عليه عن أنس رضي الله عنه .

وقال: «**مِنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ محمدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**» إلىٰ قوله: «**أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ مِنْ أَيِّ أَبْوَابِهَا شَاءَ**»، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾﴾ [سورة الكهف:١٠٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [سورة

---

(١) «الفتاوىٰ العراقية» (٢/ ٥٨٤)، «الداء والدواء» (٣٨١-٣٨٢).

يوسف:٢٤]، فعلل صرف السوء والفحشاء بأنه من المخلصين، فالإخلاص ينفي الذنوب والبدع والشرك.

فإذا تم تحقيق التوحيد علىٰ هذه الصورة دخل العبد الجنة بغير حساب لانتفاء أسباب دخول النار، وكلما قصَّر في تحقيق التوحيد تأخر في دخول الجنة، فإذا ناقض التوحيد لم يدخل الجنة لانتفاء أسباب دخول الجنة، ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ ٱلۡجَنَّةَ وَمَأۡوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [سورة المائدة:٧٢]، فمن مات علىٰ الشرك دخل النار.

القاعدة العاشرة

لا يدوم التوحيد إلا بدوام الدعوة إليه والنهي عن ضده[(١)]

فالتوحيد كما يدعو إلىٰ إفراد الله تعالىٰ بما يختص به، فإنه كذلك يدعو إلىٰ محاربة الشرك: بالدعوة إلىٰ التوحيد والنهي عن الشرك، حتىٰ يكون الدين كله لله، ﴿وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ﴾ [سورة الأنفال:٣٩].

وعلىٰ هذا سار جميع الرسل والأنبياء وأتباعهم، ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٨﴾ [سورة يوسف:١٠٨]، ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦].

ولا يدوم التوحيد في الأمم إلا بدوام الدعوة إلىٰ التوحيد وإنكار الشرك ووسائله، كما لا تدوم السنة في مجتمع إلا بدوام الدعوة إلىٰ السنة وإنكار البدع ووسائلها.

(١) «شرح كتاب التوحيد: باب الدعاء إلىٰ لا إله إلا الله»، «الشرح الجديد علىٰ القول المفيد» (ص ٣٧٣).

وإذا لم يقم الموحِّد بالدعوة إلىٰ توحيد رب العالمين وسنة نبيه الأمين ﷺ، فإنه يجد من يدعوه أو يدعو قومَه إلىٰ الشرك والبدعة، فيعمَّ الفساد ويهلك العباد.

ولما بعث النبي ﷺ معاذاً إلىٰ اليمن أمره بالدعوة إلىٰ التوحيد فقال: «**فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَىٰ أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَىٰ...**».

والقرآن مملوء بالأمر بالدعوة وبيان وجوبها، ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [سورة القصص:٨٧]، ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [سورة الحج:٦٧].

فواجبٌ علىٰ كل مسلم عموماً وعلىٰ طلبة العلم خصوصاً أن يجتهدوا في الدعوة إلىٰ التوحيد حتىٰ الممات، ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ٩٩﴾ [سورة الحجر:٩٩].

القاعدة الحادية عشر

لا صلاحَ ولا سعادةَ للعبادِ إلا بالتوحيد(١)

اعلم رحمك الله تعالىٰ! أن العبد مفطور علىٰ الرغبة إلىٰ الله تعالىٰ واللجوء إليه والاطمئنان بذكره، بل إن نفس الإيمان بالله تعالىٰ وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، فكلما ازداد منه زاد صلاحه، وتمت سعادته، وانشرح صدره، وعزَّ قدره، وانجلت همومه، وهانت مصائبه، وغلب خيره، وذلَّ عدوه... كما قال تعالىٰ: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [سورة الرعد:٢٨]، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة المنافقون:٨]، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾ [سورة الرعد:٢٩]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [سورة النحل:٩٧] الآية. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [سورة الأنعام:٨٢].

---

(١) «الفتاوىٰ» (١/ ٢٤-٢٧) وغيرها.

فأتم الناس توحيداً أعمهم أمنًا وأطيبهم حياة في الدنيا والآخرة، وتلك الحياة الإيمانية الطيبة هي جنة الدنيا ونعيمها، وكل سعادة سواها سراب، وكلما كان العبد أبعد عن توحيد الله تعالىٰ وطاعته وذكره كان أشقىٰ حالاً وأضنك عيشًا، وأتعس نفسًا، لأنه خالف فطرته وجرعها ما به تمرض وتشقىٰ، ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [سورة طه:١٢٤].

فأسعد الخلق أعظمهم توحيداً وعبودية لله وحده لا شريك له ظاهراً وباطنًا، وأشقىٰ الخلق أبعدهم عن ذلك، ففقر العبد إلىٰ مولاه سبحانه ليس له نظير، ولذلك كَثُر الانتحار في صفوف المشركين وضاقت صدورهم، ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [سورة الأنعام:١٢٥] الآية.

فلا إله إلا الله! ما أعظم التوحيد! وما أجلَّ آثاره في الدنيا والآخرة، وصدق من قال: (مساكين أهل الغفلة، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها). فلا صلاح للبشرية في دينهم ودنياهم إلا بالإسلام والتوحيد.

القاعدة الثانية عشر

الأصلُ في البشرية التوحيدُ، والشركُ طارئٌ عليهم(١)

خلق الله تعالىٰ آدم عليه السلام وفطره علىٰ التوحيد، وعلَّمه الإخلاص والتقوىٰ، فعاش علىٰ ذلك هو وبنوه قرونـًا طويلة، حتىٰ ظهر الشرك في قوم نوح عليه السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ﴾ [سورة يونس:١٩]، اختلفوا بالوقوع في الشرك.

وفي صحيح مسلم من حديث عياض رضي الله عنه أن النبي ﷺ عن الله تعالىٰ قال: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**».

وكذلك التوحيد أمر فُطِر عليه كل عبد، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [سورة الروم:٣٠].

وعلىٰ هذا أجمع المسلمون من كل ملة، ولم يخالف إلا الملاحدة.

---

(١) «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٤٢)، «الشرك في القديم والحديث» (١/ ١٨١–٢٠٠) وغيرهما.

القاعدة الثالثة عشر

تسوية غير الله بالله تعالى شركٌ(١)

من عدل بالله تعالىٰ غيره في شيءٍ من خصائصه سبحانه فهو مشرك، بل إن ذلك أصل الشرك، كما قال تعالىٰ عن المشركين في مخاصمة آلهتهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [سورة الشعراء:٩٧-٩٨]، ولم يسووهم بالله تعالىٰ في كل شيء، بل في بعض خصائصه كالمحبة والدعاء وبعض العبادات، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [سورة البقرة:١٦٥] الآية. وقوله: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾﴾ [سورة الأنعام:١]، مع اعترافهم بأن الله تعالىٰ هو الخالق وحده، لكن عدلوا غيره به في العبادة تحت مسمىٰ الواسطة والشفعاء، فدعوهم ونذروا لهم وتقربوا إليهم بذلك ونحوه كما يُتَقرَّب بها إلىٰ الله عز وجل، وذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله عز جل، فأيُّ ظلم أقبح من هذه التسوية، حيث عدل الخالق بالمخلوق، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ [سورة

(١) «الفتاوىٰ» (١٣/ ١٩)، «الاستقامة» (١/ ٣٤٤) وغير ذلك.

النحل:١٧]، ﴿ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ٥٩﴾ [سورة النمل:٥٩]، وهذا استفهام إنكاري توبيخي، بيَّن فيه أن من سوَّىٰ غير الله تعالىٰ بالله تعالىٰ فهو مشرك، سواء كان ذلك في الربوبية –وهو نادر– أو الألوهية –وهو الأكثر– أو الأسماء والصفات، وهو كثير في المعطلة والممثلة من جميع الأمم.

وقد منع النبي ﷺ من قول (ما شاء الله شاء فلان) وجعل ذلك تنديداً لكونه ذريعة إلىٰ اعتقاد التسوية بين الخالق والمخلوق في بعض خصائص الرب سبحانه، وهذه التسوية إن كانت فيما هو شرك أكبر فشركٌ أكبر، وإن كانت فيما هو شرك أصغر فأصغر، كُلٌّ بحسبه، وقد يصير الأصغر أكبر مع اعتقاد المساواة، كمن حلف بغير الله تعالىٰ واعتقاده أن المحلوف به مساوٍ لله تعالىٰ في شيء من خصائصه، وعلىٰ هذا فقس.

القاعدة الرابعة عشر

الاتباع للرسل أصل التوحيد

ومخالفة الرسل عليهم السلام أصلُ الشرك (١)

إن رسل الله تعالىٰ عليهم السلام جاؤوا بالتوحيد الخالص، فخلف بعدهم خلوف أحدثوا البدع وخالفوا الرسل حتىٰ وقعوا في مستنقع الشرك والوثنية، كما حصل لقوم نوح وهود وصالح، وتأمل ما حصل لبني إسرائيل لما عبدوا العجل فخالفوا موسىٰ عليه السلام بل وهارون مع نهيه لهم: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [سورة طه:٩٠-٩١].

وهكذا صنعت القبورية في هذه الأمة، حيث خالفوا الرسول ﷺ، فهو نهىٰ عن رفع القبور وهم رفعوها وعظموها، ونهىٰ عن الشرك بها وبغيرها وهم أشركوا بها وعندها...

(١) «إغاثة اللهفان» (١/ ١٣٠-١٣١)، «الاستقامة» (١/ ٣٠٢)، «الإجماع» (ص ١٠٣)، «الشرح الجديد» (ص ٣٧٩).

فتبين أن أصل الشرك والكفر: مخالفة الرسل عليهم السلام، بل ذلك أصل كل فساد وشر، فمن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه التوحيد وعبادة الله تعالىٰ وطاعة رسوله ﷺ ، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحطٍ وتسليط عدو وغير ذلك فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلىٰ غير الله سبحانه.

ولهذا كان ابتداع العادات الباطلة من الشرك ونحوه هو الغالب علىٰ النصارىٰ ومن ضاهاهم من منحرفة المتصوفة، فكلما كانت البدع في طائفة أكثر كان الشرك فيها أكثر كالرافضة، فهم أكذب الناس وأعظمهم شركًا في أهل الأهواء... فالشرك بدعة، والبدعة تؤول إلىٰ الشرك كثيراً، ولم يوجد مبتدع إلا وفيه نوع من الشرك، وبالعكس، فكلما كان العبد أشد اتباعًا كان أعظم توحيداً، ولهذا قيل - وهو حق -: لا يقوم بالتوحيد علىٰ وجهه إلا أهل الاتباع.

القاعدة الخامسة عشر

الوسطية الشرعية من أصول التوحيد

والغلو في الصالحين وغيرهم من أصول الشرك (١)

الغلو في الدين منبع لفساد عريض، فالبدع والشرك بسبب الغلو في الدين ومخالفة الرسول ﷺ، وقد نهىٰ الله تعالىٰ عباده عن ذلك فقال: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ﴾ [سورة النساء:١٧١] الآية. وقال نبينا ﷺ: «**إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ فِي الدِّينِ**»، رواه النسائي (٣٠٥٧) وغيره.

وأول شرك حدث في الأرض كان أصله الغلو، كما حصل في قوم نوح لما غلوا في صالحيهم، ثم عكفوا علىٰ صورهم وعبدوها وتواصوا بذلك، ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا﴾ [سورة نوح:٢٣] الآية. فهذا أول شرك في العالم، ورأس كل بلية، ومبدأ كل فساد في العقائد، وعنه ولدت الوثنية والإلحاد والكفر والبدعة...

(١) «الفتاوىٰ» (١٠٧/ ٤٦٠)، «إغاثة اللهفان» (٢/ ٩٦٤-٩٧١).

ولله در المعلمي حيث قال: (**أوسع أودية الباطل الغلو في الأفاضل**).

فظهر أن أصل عبادة الأصنام والقبور والكواكب وغيرها هو الغلو في المخلوق وإعطاؤه فوق منزلته، واعتقاد فيه شيئًا من خصائص الرب سبحانه، وكما هو حاصل -أيضًا- في النصارىٰ الذين كفرهم الرب سبحانه بقوله: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [سورة المائدة:١٧]، فهذا الغلو هو المنهي عنه في قوله ﷺ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَىٰ عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ**»، ولهذا أمر الله تعالىٰ نبيه صلىٰ الله عليه وسلم أن يقول: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [سورة الأعراف:١٨٨] الآية. ومن هنا جاء النهي عن وسائل الشرك، كما سبق في القاعدة الثامنة.

القاعدة السادسة عشر

أصل الشرك اتخاذ الوسائط في جلب المنافع ودفع المضار وصرف العبادة لها(١)

لما خالف الضُّلال رسلَهم وغلوا في دينهم بلغ أمرهم إلىٰ اتخاذ الوسائط الشركية والتوسل بهم إلىٰ الله تعالىٰ ، وهذا كان أصل شرك قوم نوح والعرب وغيرهم، حيث قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر:٣]، ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس:١٨]، وظنوا أنه لابد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار كحال ملوك الدنيا، وأن هذه الواسطة لن تقوم بالشفاعة إلا بعد تقديم القرابين لها... فجمعوا بين سوء الظن بالله تعالىٰ وشرك التمثيل وبين شرك العبادة، وهذا من أقبح الشرك وأنجسه، وهو شركٌ في الربوبية والألوهية غير مغفور لمن مات عليه، ولا تنفع المشرك دعوىٰ أنه أراد تعظيم جناب الله تعالىٰ، فقد سمَّاهم الله تعالىٰ كذبة، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ۝٣﴾ [سورة الزمر:٣].

---

(١) «الفتاوىٰ» (١/ ١٢٦-١٣٨)، «شرح الطحاوية» (ص ٣٦-٣٧) ط ابن تيمية. «الفتاوىٰ» (١٧/ ٤٦٠) وغيرها.

وبهذا يُعلم أن أصل الشرك: القياس الباطل، وقد نفاه الله تعالىٰ في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [سورة الشورىٰ:١١]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾ [سورة الإخلاص:٤]، وأخبر سبحانه أن هذه الوساطة لا تُقبل ولا يحتاج إليها، لأنه علام الغيوب يسمع من دعاه، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة:١٨٦] الآية. وكذلك الشفاعة خاصة بأهل التوحيد لا ينالها مشرك، ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [سورة غافر:١٨]، وبهذا تعلم ضلال عُبَّاد القبور وكهنوت الكنائس والأصنام وغيرهم.

القاعدة السابعة عشر

اتخاذُ القبورِ مساجدَ والبناءُ عليها من أصول الشرك(١)

لما كان الغلو من أصول الشرك ومنه الغلو في المقبورين بحيث يبنىٰ عليها مسجد كما فعل أولئك الضلال، ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [سورة الكهف:٢١]، ومنه بناء القباب علىٰ القبور وإسراجها ونحو ذلك من دواعي الشرك حتىٰ صارت تُعبد من دون الله تعالىٰ، ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾﴾ [سورة النجم:١٩] الآيات. بنوا عليها وعبدوها من دون الله تعالىٰ، وكان أول من رفع القبور وصرف لها القرابين هم أقوام بعد إبراهيم عليه السلام، وكان قوم نوح يعبدون الأصنام، فزاد هؤلاء عبادة القبور وكثر في بني إسرائيل فلعنهم النبي ﷺ: «**لَعْنَةُ اللهِ عَلَىٰ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَىٰ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**»، كما هو كثيرٌ في مشركي الهند والشرق والبربر وغيرهم، وبعضهم جعل ذلك في قوم نوح حتىٰ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «**وأصل الشرك إنما نشأ من القبور**».

(١) «الفتاوىٰ الكبرىٰ» (٥/ ٢٩٠) ط: دار الكتب. «إغاثة اللهفان» (١/ ٣٦٨-٣٧٠) وغيرهما.

وقد تكاثر النهي عن ذلك، ولعن فاعله، والبراءة منه، وبيان كفره بالله تعالىٰ، وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ**» أي: يُعبد من دون الله تعالىٰ.

وفي تعظيم القبور من المفاسد ما يبكي له الإسلام ويتفتت منها قلب ذي الإيمان، حيث جعلوها قادرة علىٰ النفع والضر والإنجاء من المهالك والشفاعة في الآخرة وشدوا الرحال إليها، وقدموا لها أنواع العبادة من دعاء وذبح ونذر وطواف ... وبلغ الشرك فيهم ذروته.

وعلىٰ هذا يقال:

- **لا يجتمع قبر ومسجد في الإسلام.**
- **هدم القبور المرتفعة من الجهاد في سبيل التوحيد.**
- **لم يشرع الله تعالىٰ عبادة مطلقة عند القبور.**
- **لم يجعل الله تعالىٰ هداية الناس ولا صلاح أحوالهم متعلقة بالقبور.**

وحسبنا الله ونعم الوكيل

القاعدة الثامنة عشر

التصوير أول ذرائع الشرك(١)

تصوير ذوات الأرواح أول ما عُرِف في قوم نوح لما صوروا الصالحين ثم عبدوهم مع مرور الأيام، وهكذا صنع مشركو الأمم حتىٰ عبدة الكواكب صوروا لها تماثيل وعبدوها، ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢﴾ [سورة الأنبياء:٥٢].

وكان بنو إسرائيل أول ما أشركوا بعد تصوير العجل، وهكذا تصوير الأنبياء والصالحين، «**أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ مِنْهُمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَىٰ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، ثُمَّ صَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، وَأُولَئِكَ شِرَارُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللهِ تَعَالَىٰ**».

ولذلك جاء النهي العام عن تصوير ذات الروح ولعن فاعله، ونسبته إلىٰ أظلم الظلم والبراءة منه، والأمر بطمس الصور عمومـًا، كما قال علي رضي الله عنه لأبي الهياج: **أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَىٰ مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ** ﷺ ؟ «**أَنْ لَا تَدَعَ قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ، وَلَا صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا**»، رواه مسلم.

---

(١) «شرح كتاب التوحيد: باب ما جاء في المصورين»، وراجع القواعد الثلاث السابقة.

فطمسها قطع لذريعة الشرك والوثنية، وبهذا تعلم خطأ من أباح التصوير أو نوعًا منه، ولكأني بأناسٍ بعد أيام يعبدون الصور المتحركة كما عبدوا الصور الثابتة والمجسمة و نحوها.

القاعدة التاسعة عشر

حسنُ الظنِ باللهِ تعالى من أصول التوحيد
وإساءةُ الظن بالله تعالى من أصول الشرك(١)

الشرك والكفر والتمثيل والتعطيل مبنية علىٰ سوء الظن بالله تعالىٰ، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام للمشركين: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [سورة الصافات:٨٦-٨٧]، أي: لقد ظننتم بربكم ظن السوء حتىٰ عبدتم معه غيره.

فإن المشرك ما أشرك حتىٰ ساء ظنه بالله تعالىٰ أنه لن يعطيه مراده إلا بواسطة الشريك الذي عبده من قبرٍ أو صالح أو غير ذلك، أو أنه لا يعلم حاله حتىٰ يُعلمه الشريك أو الولي ... وهذا أصل شرك الخلق، ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾ [سورة ص:٢٧]، وسوء الظن صفة المشركين والمنافقين، ولذلك توعدهم بالعذاب: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٢٩) ط: الرسالة. «تجريد التوحيد» (ص ٨٤)، «إغاثة اللهفان» (١/ ١٢٩).

وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾﴾ [سورة الفتح:٦].

وبالجملة: فأعظم الذنوب عند الله تعالىٰ هو إساءة الظن به، ومنه تولدت جميع الذنوب والمعاصي والبدع والشركيات.

وكان حسن الظن بالله تعالىٰ من أعظم الحسنات وأوجب واجبات التوحيد، وقد قال ﷺ: «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ**»، رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه .

والإيمان بكل ما أخبر الله تعالىٰ به والتوكل عليه، والإيمان بكمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.. كله داخل تحت حسن الظن بالله تعالىٰ.

القاعدة العشرون

تركُ التشبُّهِ بالكفار من أصول التوحيد
والتشبه بالكفار من أصول الشرك(١)

أصل كل خير: المحافظة علىٰ سنن الأنبياء وشرائعهم، كما أن أصل كل شر وشرك وبدعة: التشبه بالكفار حيث وُجِدوا.

فأول ما دخل الشرك علىٰ الأمم بعد قوم نوح من أتباع الرسل كأهل الكتاب وغيرهم كان سببه الأعظم التشبه ومجاراة الكفار، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [سورة الأعراف:١٣٨] الآيات.

وكان عمرو بن لحي الخزاعي أول من أدخل الشرك إلىٰ العرب تشبهاً باليهود والنصارىٰ، لا سيما نصارىٰ الشام، وكان فعله هذا أصل شرك العرب، فلم يزل الأمر يتزايد حتىٰ غلب الشرك علىٰ الحرم واندرس دين إبراهيم عليه السلام، كما أن البدع منشؤها من التشبه بالكفار، وفي الصحيحين من حديث

(١) «الاقتضاء» (١/ ٣٥٢) وغيره.

أبي سعيد الخدري وغيره: «**لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ**».

ولو قرأت في كتب مقارنة الأديان لظهر لك الأمر جليًّا لا خفاء فيه، «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»، لأن المشاركة في الظاهر تورث موافقة في الباطن.

ولهذا جاء التحذير البليغ من التشبه بالكفار والمبتدعة، لما فيه من المفاسد والأضرار علىٰ الدين والدنيا، والتي منها الشرك والبدعة والمعصية وسلوك طريق الضلال والغضب، كما في سورة الفاتحة: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ [سورة الفاتحة:٦] ثم عقَّبه بقوله: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [سورة الفاتحة:٧]، ومن ذلك ما جاء في النهي عن ذرائع ووسائل الشرك كما سبق.

القاعدة الواحدة والعشرون

الشركُ والكفرُ يكون بالقلب واللسان والجوارح(١)

فكما أن الإيمان يكون بالقول والقلب والجوارح، وأنه ذو شُعَب؛ فالشرك والكفر ضد الإيمان يكون كذلك بالقلب واللسان والجوارح، وهذا مجمَعٌ عليه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ﴾ [سورة التوبة:٧٤]، ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن:٧]، ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٥٢]، وقد نص العلماء علىٰ أن الردة تكون بالقول كَسَبِّ الله تعالىٰ، وبالنية كالشك في قدرة الله تعالىٰ، وبالفعل كالذبح لغير الله تعالىٰ، ونحو ذلك، وقد بسطنا هذا في عدة مواضع.

---

(١) انظر «التكفير وضوابطه» (١٠٥-١١٠)، «الشرح الجديد علىٰ القول المفيد» (١٦٥-١٧٨).

القاعدة الثانية والعشرون

الشركُ والكفرُ والظلم والفسوق ونحوها قسمان: أكبر مخرجٌ من الملة، وأصغر غير مخرج من الملة(١)

وهذا مجمَعٌ عليه عند أهل السنة والجماعة، فالأكبر كما سبق ذكره، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ۝١٣﴾ [سورة لقمان:١٣]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ [سورة النساء:٤٨]، ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [سورة غافر:١٨] ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (٦٠)﴾ [سورة الذاريات:٥٩، ٦٠]، فهذا أكبر.

والأصغر كقوله ﷺ للنساء: «وَأُرِيتُ النَّارَ فَلَمْ أَرَ مَنْظَرًا كَالْيَوْمِ قَطُّ أَفْظَعَ وَرَأَيْتُ أَكْثَرَ أَهْلِهَا النِّسَاءَ» قَالُوا بِمَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «بِكُفْرِهِنّ» قِيلَ: يَكْفُرْنَ باللهِ ؟ قَالَ: «يَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ وَيَكْفُرْنَ الْإِحْسَانَ لَوْ أَحْسَنْتَ إِلَىٰ إِحْدَاهُنَّ الدَّهْرَ كُلَّهُ ثُمَّ رَأَتْ مِنْكَ شَيْئًا قَالَتْ مَا رَأَيْتُ مِنْكَ خَيْرًا قَطّ» متفق عليه.

(١) «المدارج» (٣/ ٣٣٧)، (١/ ٣٤٤)، «الدرر السنية» (٢/ ٧٠-٧١)، «الشرح الجديد» (١٤٥-١٦٣، ١٦٥).

وكقوله صلىٰ الله عليه وسلم: « سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ ».

وهذا لا يخرج من الملة لمن لم يستحل.

بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)﴾ [سورة الحجرات: ٩، ١٠]. فسماهم جميعًا مؤمنين

وقد بسطنا الكلام علىٰ هذا -أيضـًا- في عدة مواضع.

القاعدة الثالثة والعشرون

الفهمُ الصحيحُ لما جاءت به الرسلُ أصل كل خير وصلاح وسوء الفهم أصلُ كلِّ شركٍ وبدعة(١)

إن فهم كلام الله تعالىٰ ورسوله علىٰ وجهه **والعمل** به أصل كل خير وصلاح، ولذلك كان أعلم الناس بالله تعالىٰ هم الرسل عليهم السلام ثم من تبعهم بإحسان، ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [سورة البقرة:٢٦٩] أي: أولي الفهم والقلوب الواعية.

وأما سوء الفهم عن الله ورسوله فهو أصل كل شرك وبدعة وضلالة نشأت في الإسلام، وهو أصل كل خطأ في الأصول والفروع لا سيما إذا أُضيف إليه سوء القصد ...

ولذلك وصف الله تعالىٰ المنافقين والكفار بأنهم لا يفقهون، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [سورة الأعراف:١٧٩].

(١) «شرح الطحاوية» (ص ٥١٣) ط: الرسالة. «الروح» (٢/ ٧٢٣-٧٤٣) ط: الفوائد.

ومن تأمل ما حصل في قوم نوح والأمم بعدهم وجد منشأه سوء الفهم لِمَا جاءت به الرسل، وإذا ضل الفهم حصل الخلط بين الحق والباطل، فاختلط التوحيد بالشرك، والسنة بالبدعة، فالهدىٰ كله فرقان، والضلال أصله الجمع والخلط كما جمع المشركون من قوم نوح ومن بعدهم بين عبادة الله تعالىٰ وعبادة الأوثان ولم يفرقوا بين الشرك في التوسل وبين التوسل المشروع، وقالوا: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر:٣].

وخلط المبتدعة بين التنزيه لله تعالىٰ والتعطيل، وخلط الممثلة بين إثبات الصفات والتمثيل، وخلط القبورية بين إجلال الصالحين وبين الشرك بهم وخلطوا بين الألوهية والربوبية، ... والكلام علىٰ هذا يطول.

فتبيَّن أن سوء الفهم أشد خطراً من الجهل البسيط، ولذلك سماه العلماء: الجهل المركب، ﴿وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [سورة النور:٤٠]، فإذا أنار الله تعالىٰ قلبك وسدد فهمك نجوت من تخليط أهل الباطل، وخرجت منه إلىٰ فرقان عظيم وصراط مستقيم.

القاعدة الرابعة والعشرون

الراضي بالشرك مشركٌ ولو لم يعملْهُ(١)

وهذه القاعدة داخلة تحت قاعدة: (**لا يتم التوحيد إلا بالبراءة من الشرك وأهله**).

وقد قال الله تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ ﴿٧٩﴾﴾ [سورة المائدة:٧٨-٧٩] الآية. «**فَمَنْ شَهِدَهَا وأَنْكَرَهَا فَهُو كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا ورَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ عَمِلَهَا**»، ومن ذلك ما يفعله سدنة القبور من قبض النذور التي تبذل للقبور والأولياء مُقِرِّين لذلك، فكيف بمن دعا إلىٰ تلك الشركيات، فهو أعظم شركًا وأوسع ضلالاً لا سيما إذا نسب ذلك إلىٰ الدين والتوحيد أو السنة أو الإسلام، فذلك أطم وأضل سبيلاً.

---

(١) «شرح تطهير الاعتقاد» للراجحي (ص ١١٦).

القاعدة الخامسة والعشرون

العذر بالجهل في مسائل التوحيد حقٌّ بضوابطه[(١)]

العذر بالجهل في مسائل التوحيد والعقيدة وغيرهما حق إذا تمت شروطه وضوابطه، وقد قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ۝١٥﴾ [سورة الإسراء:١٥]، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [سورة الأنعام:١٩]، والجهل يكون عذراً لمن لم تبلغه الحجة علىٰ وجهها: إما لم تبلغه أصلاً، أو بلغته ولم يفهمها لجهله باللسان الذي خوطب به، أو لأمر آخر كعجزه وعدم قدرته علىٰ معرفة الحق.

أما من كان سبب جهله الإعراض عما جاء به الرسول ﷺ من الكتاب والحكمة، وابتغىٰ الهدىٰ في خلاف ذلك فهو بعد البلاغ كافرٌ، كغلاة الرافضة وغلاة المتصوفة وغيرهم.

وأما من كان مؤمناً بالله تعالىٰ ورسوله ﷺ مطلقاً ولم يبلغه من العلم ما يتبين له به الصواب؛ فإنه لا يحكم بكفره حتىٰ تقوم عليه الحجة التي من خالفها كفر، والكفر لا يكون إلا بعد البيان.

---

(١) «الفتاوىٰ» (٤/ ٥٠٦)، (١٢/ ٤٩٣-٤٩٤) وكتاب «الجهل في مسائل الاعتقاد».

وبلوغ الحجة يُراد به فهمها فهمًا يُدرك به المقصود منها، وهذا قول عامة السلف، ولا يُشترط أن يفهمها كفهم من أراد الله تعالىٰ هدايته وهو (فهم التوفيق)، بل يكفي في ذلك فهم مقصود الكلام ومعناه العام.

وقيام الحجة يختلف باختلاف الزمان والمكان، والناس حسب أحوال الناس وطرق بلوغ الحجة وفهمها.

وبعض الأمور تقوم بها الحجة بمجرد الإقرار بالله تعالىٰ كتوحيد الربوبية في الجملة، لأن ذلك أمر فطري، أما تفاصيل المسائل فهذه قد يُعذر فيها كما عُذِر الرجل الذي أحرق نفسه، والله أعلم.

الفهرس